حب لايموت

أسرع علاء فى خطوه وهو يسير فى الطريق المؤدى إلى منزله بشارع روض الفرج، ولم تكن اللفافة الصغيرة التى حملها فى يده اليمنى تعوقه عن السير، وكانت شدة حرارة الشمس نقصت قليلا لأن الساعة تجاوزت الرابعة عصرا ببضع دقائق.

ما أن فتح علاء باب الشقة بمفتاحه الخاص، ودلف من الباب، حتى تناهى إلى سمعه صوت أبيه من الردهة متسائلا:

- هل أحضرت الدواء ياعلاء؟

أجاب علاء، وهو يغلق باب الشقة:

- أجل يا أبى.

واستدار، وسار فى الردهة ذاهبا إلى أبيه.

وكان الأب جالسا على مقعد يشاهد برنامجا فى التلفاز، وجلست زوجته أم علاء على مقربة منه تتابع مايحدث عن كثب، وعلى شفتيها ابتسامة تشى بحبها لولدها.

أعطى علاء اللفافة لأبيه، وتمنى له الشفاء العاجل، فشكر الأب ولده، ودعا الله أن ينعم على علاء بسعة الرزق، وأن يرزقه بزوجة صالحة تنجب له ذرية صالحة.

مس ذلك وترا حساسا فى قلب علاء، فتمنى أن يحقق له الله دعاء أبيه، وشكر أباه، وداعب أمه ببضع كلمات، فابتسمت فى حبور، وسار ذاهبا إلى حجرته.

بعد فترة وجيزة، كان علاء جالسا على مقعد بحجرته يطلب رقما فى الهاتف المحمول، وجعل الهاتف ملامسا لأذنه اليمنى وأصغى بانتباه.

ردت عبير على المتحدث بنبرات صوت رقيق، امتزجت به مسحة من الحزن جعلته أكثر تأثيرا وجاذبية، وبعد أن تبادلا السؤال عن الصحة والأحوال، قال علاء فى شئ من التردد:

- أرجو أن تحددى لى موعدا للقاء.. يجب أن نلتقى لكى....

قاطعته عبير قائلة باقتضاب:

- ليس الآن.. تصحبك السلامة.

صك أذنى علاء صوت إنهاء المكالمة، فأعاد الاتصال بعبير، وعندما أجابت بادرها قائلا:

- يسرنى أن نلتقى بعد كل هذه الأعوام، أرجوك.. حددى لى الموعد المناسب والمكان.

- فيما بعد.. سأخبرك فيما بعد.

وبعد إلحاح شديد نجح علاء فى الحصول على موعد للقاء، فكاد يطير من الفرحة، وشعر أن الزمن عاد به إلى الوراء قرابة سبعة أعوام.

شعرت عبير بالتعجب والدهشة لأن علاء مازال يذكرها بعد فراق زاد على سبعة أعوام عقب تخرجهما من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، وشغلت عبير بالتفكير فى السبب الذى يريد علاء أن يلقاها من أجله، وعندما لم تجد سببا استولت عليها الحيرة، لأن أخباره انقطعت عنها طوال الأعوام السبعة الماضية، وخيل إليها أنها لن تراه مرة أخرى، فجأة ألح على ذهنها تساؤل: "هل ياترى يريد إحياء الود القديم؟"

قطع حبل أفكارها سماع صرير باب حجرة، يعقبه وقع خطى سريعة تقترب من باب حجرتها، فى الحال نفضت عبير عن ذهنها التفكير فى علاء، وانداحت فى جوفها موجة من الحنان، فابتسمت.

دلفت نهى إلى حجرة عبير فى خفة الفراشة، وجلست على الأريكة إلى جوار عبير، ودار بينها وبين عبير حديث قصير، انتهى بأن طلبت من عبير نقودا تشترى بها مايلزمها، فأعطتها عبير ماطلبت عن طيب خاطر.

قبل ميعاد اللقاء بدقائق، كان علاء جالسا خلف منضدة بكازينو النهر يرقب وصول عبير فى قلق وترقب، ولمحها فجأة قادمة فى الممر، فشعر بفرحة غامرة، ورفع يده اليمنى بسرعة لكى تراه، فأبصرته على الفور وسارت متجهة نحوه، وقد توجت شفتيها ابتسامة رائعة زادتها جمالا وجاذبية.

صافحها علاء بحرارة وحماسة، وبعد أن جلست على مقعد قبالته، وتبادلا الحديث عن بعض شئون الحياة اليومية، انتابه الشعور بألفة وطمأنينة جعلاه يمحو من ذاكرته أعوام الفرقة، وشعر بأنهما لم يفترقا إلا فى الأمس القريب.

وبينما هما يتحدثان مرت فى الشارع خارج الكازينو مظاهرة، طالب فيها المتظاهرون بسقوط حكم (....)، عندئذ ساد الصمت جميع أرجاء الكازينو، وأصغى الحاضرون إلى الهتاف، وقد استبد بهم الشعور بالقلق والتوتر، ولاح على وجوههم التجهم والضيق، وظل أثر هذا الشعور باقيا حتى بعد أن ابتعد المتظاهرون، وتلاشى صوت هتافهم، وأراد علاء أن يبدد الصمت والوجوم اللذين رانا على جو المكان، فأشار إلى النادل لكى يذهب إليهما.

رشفت عبير الجرعة الأخيرة فى كوب العصير، ووضعت الكوب على الصينية القابعة على المنضدة

أمامها، وشكرت علاء، وكان مستغرقا فى التفكير، فاحترمت صمته، ولاذت بالصمت برهة شغلت خلالها بتأمل المكان، وشق علاء الصمت الذى ران عليهما بأن قال فى شئ من التردد:

- اسمعى ياعبير.. أريد أن أقابل عمك لأطلب منه يدك وأحقق حلمى القديم وأخطبك.. سأتصل بك بعد غد لتخبرينى بموعد اللقاء.

كست وجه عبير غلالة قاتمة من الضيق والكآبة، وبذلت جهدا مضنيا لتسيطر على انفعالها. وقالت فى شئ من الاحتداد:

- لن تستطيع أن تقابله.

لاحت الدهشة على وجه علاء، وتساءل:

- لماذا؟

أجابت عبير بنفس اللهجة:

- لأننى غير موافقة على الخطوبة.

ارتبك علاء أيما ارتباك، وشعر كأنه ألقى عليه دلو مملوء بالماء البارد فى يوم شديد البرودة، وتجهم وجهه من شدة الغضب والضيق، ولاذ بالصمت برهة، جاهد أثناءها لكى يسيطر على أعصابه الثائرة، وعندما تمالك جزءا من سيطرته على أعصابه، سأل عبير عن سبب الرفض، ولم يحصل على إجابة شافية، فنادى على

النادل، ودفع ثمن المشروبين، ونهض قائما، واستأذن لينصرف، وسار متجها إلى باب الكازينو وهو فى حالة شديدة من الغضب والضيق.

مر على هذا اللقاء أكثر من عام، لم يستطع علاء خلاله أن ينسى عبير، أو يبعد تفكيره عنها، وعندما أراد أن يتناسى حبه لها، وتظاهر بحب إحدى زميلاته فى العمل بالمدرسة الإعدادية التى يقوم فيها بتدريس اللغة الإنجليزية لتلميذات المدرسة، وتمت خطبته لها، ألفى علاء نفسه غارقا إلى أذنيه فى ذكرياته مع عبير، وكثير ماتردد صدى صوتها فى أذنيه بعبارات سمعها منها فى لقاءات سابقة، وكثير ما كان يرى طيفها بعين خياله وكانه يراها ماثلة أمام عينيه بجمالها الآسر الأخاذ الذى يسبى العقول، ويسحر الألباب، ومشيتها الرقيقة الوانية تجعلها تميس مثل غصن غض يداعبه النسيم فى فصل الربيع، واضطر علاء أن يفسخ خطبته على زميلته.

وفى يوم ما، استولت على علاء فكرة أن يتصل بعبير، وعندما لم تواته الجرأة ولا الجسارة، أرسل إليها رسالة فى الهاتف المحمول أودعها فيها تحياته وأشواقه الحارة، وأخبرها بأنه فى شوق لأن يعرف أحوالها.

قرأت عبير الرسالة، ولاحت الدهشة على وجهها، فلم

يدر بخلدها أن علاء ما زال يكن لها عاطفة الحب، فشعرت بالحزن والأسى لأنها لن تستطيع أن تبادله حبا بحب.

إن عبير لاتستطيع أن تنكر أن علاء شاب طموح مكافح وعلى خلق متين، وفوق ذلك، هو ينتمى إلى أسرة طيبة ميسورة الحال، ومستقبله لابأس به، وتتمنى الزواج منه أفضل الفتيات وأجملهن، وأنها فى قرارة نفسها تتمنى الزواج منه غير أن القدر حرمها نعمة الزواج وإنجاب أبناء تعتز بهم وتحبهم بسبب ظروف طارئة دخيلة على المجتمع لم يستطع شخص ما أن يعرف كنهها، وأن من يعرف يفضل الصمت إيثارا للسلامة.

استغرقت عبير فى التفكير برهة، ثم سألت نفسها: "لماذا تجد فى كل مكان تذهب إليه من يشيع عنها أخبارا تسئ إليها وإلى سمعتها؟!" وفى العمل أيضا كانت الشائعات المغرضة تسبقها أينما ذهبت.

لذا فهى تعتقد إن من يفكر فى أن يخطبها لابد أن يؤثر الفرار فى يوم ما، فيهرب منها وكأنه يخشى أن تصل إليه النيران المحرقة، وتحرقه إذا أصر على موقفه، وسار فى طريق إتمام الخطبة.

وما تعجب له عبير فى حقيقة الأمر، إنها لاتستطيع أن تقف على أثر لمن يقومون بتشويه سمعتها، ونشر

الأكاذيب عنها، غير أن الواقع يشير إلى أن لايجرؤ شخص، أيا كان مركزه الاجتماعى على الزواج من فتاة لديها سمة واحدة من السمات التى لدى عبير، فأصبحت الوجوه تقابلها بالتقطيب والعبوس بدلا من السرور والابتسام، وبالاستهانة عوضا عن الاحترام.

إن ثقة عبير بالآخرين ضعفت إن لم تكن قد انعدمت، وصار التحفظ فى المعاملة أهم سمة من سمات عبير، فقر عزم عبير على عدم الزواج، واتخذت من رعايتها لشقيقتيها بعد وفاة أبويها مبررا لعدم الزواج، على الرغم من أن ظروفها لم تكن تمنعها.

ثم عادت عبير إلى التفكير فى علاقتها بعلاء، واعترفت لنفسها بأنها تكن لعلاء مشاعر حب عميقة، وأنهما فى أعوام الدراسة حرص كلاهما على أن يخفى عن الآخر حقيقة شعوره، وكثير ماكان علاء يتوارى خلف ستار من الجفاء والخشونة المفتعلة.

مضى أكثر من أسبوعين دون أن يصل إلى علاء الرد على رسالته، فانتابه الشعور بالغضب والضيق، وقر عزمه على أن ينسى عبير، غير أنه مالبث أن عاد إلى التفكير فيها بقوة أشد.

ومضى أسبوعان آخران، اكتشف علاء خلالهما أن النسيان أمر يفوق قوة احتماله، وقر عزمه على أن يجد

حلا لهذه المشكلة، لأنه طوال الأعوام الماضية لم يعثر على فتاة تتفق وطباعه مثل عبير.

أمعن علاء التفكير لحظة، وطرأت على ذهنه فكرة أراد أن يقوم بتنفيذها بلا أدنى انتظار، فجلس إلى مكتبه، وتناول ورقة وقلما، وبدأ فى الكتابة:

عزيزتى / عبير

تحية طيبة وبعد

مادمت لاتحبيننى فلماذا ترسلين إلىّ طيفك؟ إنه يؤنسنى فى معظم الأوقات ولا يكاد يفارقنى. قلت لنفسى، لماذا لاأكتب إليك وأخبرك بما أنا فيه، إننى من شدة حبى لك، وإعجابى بك اكتشفت أننى يجب علىّ أن أبحث عن جميع معاجم اللغة لأنتقى منها الكلمات التى أرسلها إليك، كى تعبر عن شعورى تجاهك، وعاطفتى نحوك.

إننى ياعبير لاأكاد أنطق إلا اسمك، ولا أتوق إلا لسماع صوتك العذب الرقيق، فأضنانى السهاد، وصرت أجد السلوى فى ذكريات الماضى السعيد، ألوذ بها، وأستعيدها من حين إلى آخر.

إن أمنية حياتى ياعبير أن يستضيف هذا الطيف صاحبته التى ما أحببت فى الوجود سواها، إننى أريد أن تكتحل عيناى برؤيتها، أرجو ياعبير أن تردى على

رسالتى لكى أطمئن على أحوالك، وتهدأ مشاعرى وتستقر.

المخلص لك إلى الأبد

علاء عبد الحميد

فى المساء، ذهب علاء إلى المحامى ليستشيره فى أمر توكيله بمتابعة إجراءات الحصول على شقة بالإسكان الاقتصادى، ومر فى طريقه بصندوق البريد، وبعد أن أخرج الرسالة من حقيبة أوراقه، وقف أمام الصندوق برهة فى حالة من الحيرة والتردد، بعد لحظات واتته الشجاعة على أن يلقى الرسالة فى صندوق البريد، وما أن فعل ذلك حتى سارع بالابتعاد عن الصندوق وكأنه يخشى أن تقفز الرسالة من الصندوق، وأن تعود إلى حقيبة أوراقه مرة أخرى وتستقر فيها.

انتابت علاء الهواجس والأفكار بعد أن مضت عدة أيام دون أن يصل إليه الرد على رسالته، ففكر فى البحث عن وسيلة أخرى للاتصال بعبير والسؤال عن أحوالها، ومالبث أن خطرت على ذهنه فكرة، فشرع فى تنفيذها.

بعد يومين، وكانت الشمس تجمع آخر خيوط أشعتها لتذهب إلى مخبأها المعتاد، كان علاء يسير فى شارع عماد الدين ذاهبا إلى كافيتريا "النهضة" ليقابل كمال زميله فى الدراسة، وزميل عبير فى كل من الدراسة والعمل.

وما أن وصل علاء إلى الكافيتريا، ووقع بصره على كمال جالسا إلى منضدة، حتى ذهب إليه، وعانقه فى غبطة وسرور، وجلس على مقعد قبالته، ومالبث أن انهمك الصديقان فى الحديث، وأخذا ينتقلان فى الحديث من موضوع إلى آخر، ولم يشر أحدهما إلى سيرة عبير.

وبعد فترة وجيزة، انتهز علاء فرصة الصمت الذى ران عليهما إثر انشغال كمال بإشعال سيجارة، ووجه دفة الحديث إلى سيرة عبير. فتسائل:

- كيف حال زميلتنا عبير؟

أجاب كمال:

- بخير... أختها سالى معيدة بكلية الهندسة، ومتزوجة من زميل لها، ونهى طالبة بنهائى كلية الطب.

شعر علاء بفرحة غامرة، وانتابه الشعور بأن الجدار القوى المتين الذى وقف حائلا بينه وبين عبير ومنعها من الزواج أوشك على أن يزول، فاستولى عليه الشعور بالارتياح، وانتقلا فى الحديث إلى موضوع آخر.

وما أن عاد علاء إلى المنزل وذهب إلى حجرته، حتى أرسل إلى عبير رسالة فى الهاتف المحمول، يخبرها بأنه سره كثيرا أن تكون نهى قد تزوجت، وأن تكون سالى على وشك التخرج.

قرأت عبير الرسالة فى دهشة، وساورها الارتياب فى أن تكون هذه الأخبار وصلت إليه من كمال، فقرر رأيها على عدم الخوض مع كمال فى الحديث عن شئونها الخاصة.

بعد فترة، انتاب عبير الإحساس بأن مشاعرها تجاه علاء ثارت كما تثور النيران الكامنة تحت الرماد، واستعرت فى قلبها نيران الحب الدفينة، وبذلت جهودا مضنية لكى تئد هذه المشاعر فأخفقت، فأخذت تفكر فى وسيلة للتغلب عليها.

بعد يومين تقدمت عبير بطلب إلى مدير شركة السياحة التى تعمل بها، ترجوه أن يوافق على نقلها إلى فرع الشركة بشمال سيناء.

ثم مضت بضعة أيام، وتسلمت عبير عملها الجديد، فأرسلت إلى علاء رسالة فى الهاتف المحمول قالت فيها: "أرجو أن تصفح عنى...سنلتقى فى الآخرة".

المخلصة للأبد

عبير مصطفى